

واقع الطفولة في الوطن العربي بين الإساءة والدونية

أ.د. معتوق جمال

جامعة سعد دحلب البليدة

Résumé :

ملخص:

A travers cette étude on essaye de traiter le problème de l'enfance et la maltraitance dans le monde arabo-musulman d'une façon générale et en Algérie en particulier.

Parler de l'enfance et de la maltraitance dans le monde arabo-musulman est une dure entreprise vu la place ou statut qu'occupe l'enfant dans ce pays.

Notre article est une sorte de défraîchissement de l'imaginaire arabo-musulman et surtout de la réalité socioculturelle pour cerner les différents facteurs de la maltraitance des enfants.

نسعى من وراء هذا العمل المتواضع التناول بالدراسة أحد أخطر المواضيع في مجال اجتماع الطفولة ولهذا يعد الكلام عن الثنائية والإساءة من المواضيع الطابو في المجتمعات العربية والإسلامية وقد إتبعنا في هذا العمل الطريقة النقدية لاستنتاج كل من المخيال العربي الإسلامي من جهة والواقع الاجتماعي والثقافي ومكانة الطفل العربي.

تمهيد:

تعد مرحلة الطفولة من أهم المراحل التي يمر بها الإنسان، لأنها الأساس الذي تبنى عليه شخصيته من جميع النواحي، بحيث يمر الطفل بأربعة أنماط رئيسية مترابطة، كالتطور الفيزيولوجي والعقلي والنفسي والانفعالي والاجتماعي، دورا كبيرا في تطور سلوك الفرد وإكسابه معارف عن ذاته وعن غيره.

ومن الملاحظ أن في الوسط الاجتماعي الذي ينشأ في الطفل، مؤسسات عديدة تعينه على التطور اللغوي والذهني والمعرفي وتوفر له العديد من الاحتياجات كما تقوم بالاهتمام به ورعايته وعدم تعريضه للعنف والأذى والإهمال، وبذلك تبرز المكانة التي تحتلها الطفولة في المجتمعات الإنسانية ومن هنا نقول بأن الطفولة تعد من أهم المراحل العمرية والأكثر خطورة وتقيدا، لما لها من آثار وانعكاسات على شخصية الفرد في المستقبل وقدرته على التفاعل الإيجابي مع بني جلدته.

والطفولة السوية تكون في نهاية الأمر نتاج لنوعية التنشئة الاجتماعية التي تلقاها الفرد، وهذا ما أكدته العديد من النظريات الاجتماعية منها والنفسية.

1- في معنى الطفولة:

تستخدم مصطلحات عديدة للإشارة إلى الفئات العمرية، فهناك مصطلح القاصر والولد والشاب والمراهق والحدث والطفل... الخ.

وتعرف هذه المرحلة على أنها تلك المرحلة المبكرة في دورة حياة الإنسان والتي تتميز بنمو جسمي سريع للطفل، سعياً لتشكيل الأطفال لإعدادهم لأدوار البالغين ومسؤولياتهم من خلال وسائل اللعب والتعليم الرسمي غالباً.⁽¹⁾

وعرف الطفل بأنه ذلك الكائن الذي يولد مزوداً ببعض الخصائص العضوية والفيزيولوجية وله حاجات بيولوجية ونفسية، "...وهو يعيش في وسط اجتماعي لا غنى عنه، وعليه أن يتعلم كيف يتوافق معه على سد حاجاته النفسية والاجتماعية..."⁽²⁾ فهو في بداية حياته عالمة على غيره ومحل عناية ورعاية واهتمام من قبل المحيطين به.

إن الطفل في هذه المرحلة المبكرة يعتمد اعتماداً كلياً على الآخر، ويكون الطفل في هذه المراحل الطرف المستجيب لعمليات التفاعل الاجتماعي من حوله، والتي يزود عن طريقها بالعادات والتقاليد والقيم والمعايير وأساليب التفكير أنماط السلوك التي تؤثر في شخصيته واستيعابه للواجبات والالتزامات المرتبطة بتوقعات الأدوار في المستقبل، وبالتالي تحدد مستوى تكامله مع المجتمع على المستوى الثقافي والاجتماعي والمعياري والشخصي...⁽³⁾

منه يمكن القول بأن العملية التنشئية التي يتلقاها هذا المخلوق هي التي تحدد مدى استجابته لما يتوقع منه أفراد المجتمع.

وقد بينت العديد من الدراسات في ميدان علم الاجتماع الجنائي،* أن مجمل سلوكيات وتصرفات الأفراد ما هي إلا تاج لما تلقوه، عبر البيئات التنشئية، سواء كانت هذه السلوكيات سوية أم غير سوية. ولمرحلة الطفولة أقسام وفي الغالب يشار أو يعبر عنها بالفترة ما بين المهد والمراهقة، وعلى العموم فإن الدراسات تشير إلى أن الطفولة مراحل وأغلبها يتفق على التقسيمات التالية:

(1) منيرة بن عبد الرحمن آل سعود، إيذاء الأطفال: أنواعه وأسبابه وخصائص المتعرضين له، الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ط1، 2005، ص5.

(2) الزهراوي ع. الهادي، ثقافة الأطفال بالمغرب، المغرب، M.B.H. 1999، ص14.

(3) عفيفي عبد الخالق محمد، الأسرة والطفولة، القاهرة، مكتبة عين شمس، 1993، ص290.

* انظر أعمال كل من العالم "تارد" G. Tarde حول التقليد والمحاكاة وكذلك أعمال Albert Bandura صاحب نظرية التعلم، والعالم "جون دولارد" John Dollard صاحب نظرية الإحباط، وغيرهم من العلماء الآخرين.

أ- **مرحلة المهد:** تمتد من الميلاد إلى نهاية السنة الثانية.

ب- **مرحلة الطفولة المبكرة:** تمتد من السنة الثانية إلى السنة السادسة، أي مرحلة ما قبل المدرسة.

ج- **مرحلة الطفولة المتأخرة:** وتمتد من السنة السادسة إلى السنة الثانية عشر.*

كما نشير إلى أن هناك العديد من التعاريف الخاصة بهذه المرحلة العمرية فالبعض عرفها على أساس خطورتها وأهميتها في بناء شخصية الفرد وما يترتب في المستقبل والبعض الآخر عرفها على أساس القصور الذي يتميز به المخلوق -الطفل- داخل بيئته الاجتماعية.

ومن بين التعاريف الخاصة بالطفولة نذكر أنها: "الفترة التي يقضيها الإنسان في النمو والترقي حتى يبلغ مبلغ الراشدين ويعتمد على نفسه في تدبير شؤونه وتأمين حاجاته الجسدية والنفسية، ويعتمد فيها الصغار على ذويهم في تأمين بقائهم وتغذيتهم وحماية هذا البقاء، فهي فترة قصور وضعف وتكوين وتكامل في آن واحد.⁽¹⁾

2- نبذة تاريخية عن واقع الطفولة:

كانت تربية الطفل في العصور القديمة تعمل على تحميل الطفل مسؤوليات عديدة، ففي العهد الإغريقي كانت مسؤولية تربية الطفل تقع على عاتق الوالدين حتى سن السابعة بعدها يحمل مسؤوليات ويربى على ممارسة الرياضة من أجل اللياقة البدنية، ويربى على المعاملة الخشنة وروح التجديد والابتكار، حيث أنه يمكن للطفل أن يهيا على صور الكبار، أما الرومان فقد كانوا يشابهون الإغريق في طريقة إعداد النشء.**

وإذا انتقلنا إلى إعداد الطفل في بعض الديانات فإننا نجد المسيحية واليهودية تعتني بالتربية الدينية والإعداد الديني منذ الصغر.

وفي العصر الوسيط كانت هناك دعوات لتربية وإعداد الطفل بلغة القلب والعاطفة ورفض العقاب الجسدي، وهذه الدعوات شكّلت فيما بعد ثورة على الصعيد التربوي وتحول نوعي في مكانة وحاجات الطفل، ويعود الفضل هنا إلى إسهامات العديد من العلماء ورجال الدين والفلاسفة على رأسهم العالم "مونتاني" Montaigne و"رابلي" Rabelais وجون جاك روس J.J. Rousseau

* انظر منيرة بنت عبد الرحمان آل سعود، نفس المرجع.

(1) حامد عبد السلام زهران، علم النفس النمو: الطفولة والمراهقة، ط1، القاهرة، عالم الكتب، 1982، ص55.

** للمزيد ارجع إلى: إيدجار فور، تعلم لتكون، ترجمة: حنفي بن عيسى، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.

وغيرهم من العلماء والمصلحين الآخرين.

وكانت التربية العربية قبل الإسلام على المحاكاة والتقليد ويربى الأطفال على القيم والمبادئ القبلية التي تغنى بها العرب وتربى أطفال العرب منذ الصغر في البوادي لغاية أروادها هم، ليثب الأطفال على القسوة والجرأة والصلابة والفصاحة.

ويعد هذا النموذج التربوي المعتمد في البيئة العربية قديماً في العهد الجاهلي من النماذج التي انفردت بها القبائل العربية، وهذا ما يبين أن مصطلح "الجاهلية" يجب إعادة النظر فيه وعدم التسرع في القول بأن العرب في هذه المرحلة التاريخية -أي قبل مجيء الإسلام- كانوا يجهلون كل صغيرة وكبيرة عن فنون التربية والفنون الحياتية الأخرى.

3- الطفولة في الشريعة الإسلامية:

أولى الإسلام أهمية كبيرة للطفولة وبين حقوقها في الرعاية والاهتمام والتكريم والرحمة، وركز الدين الإسلامي في ذلك على الجانب الديني والدنيوي.

لقد دعا الإسلام في الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى ضرورة حسن معاملة الأطفال وتربيتهم تربية حسنة والرأفة بهم والعطف عليهم.

فقد قال صلى الله عليه وسلم: «من كان له صبي فليتصابى له».

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه - قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يأخذني فيقعدني على فخذيه ويقعد الحسن على فخذيه الأخرى ثم يضمهما، ثم يقول اللهم ارحمهما فإني أرحمهما".*

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا". وفي حديث آخر كذلك عن أنس بن مالك قال: "ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم -، وغيرها من الأحاديث التي تعكس مدى أهمية الرعاية والاهتمام بالطفولة وعدم تعريضها للأذى المادي والمعنوي في الإسلام.

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى "...الرفق واللين في معاملة الطفل، فلا بد من التعامل مع الطفل برفق مع أي خطأ يصدر منه وليس بالشدّة والقسوة حتى يحقق نموه السوي".

وفي جانب آخر دعا الإسلام إلى ضرورة المساواة في المعاملة بين الأبناء والعدل وعدم التمييز بينهم، ومن حقوق الأبناء عدم المفاضلة بينهم على أساس الجنس، وكذلك في النفقة

* انظر: صحيح مسلم، البخاري، الترمذي...

عليهم وإطعامهم وكسوتهم وتعليمهم وتحقيق العيش الكريم لهم، وبذلك نجد الإسلام قد نهى عن التعدي على الإنسان إن كبيرا أو صغيرا، رجلا كان أو امرأة، عاقلا كان أو مجنونا. حتى قيل بث الروح فيه، جنينا في بطن أمه إلى شيخوخته ومماته، إذ يقول الله تعالى: ((وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف...)).⁽¹⁾

كما نجد أن الشريعة الإسلامية قد حددت طرق التعامل مع الأطفال وكيفية تأديبهم، خاصة في قضايا الضرب، فجد الرسول صلى الله عليه وسلم- أمر بانقاء الوجه عند التأديب والضرب، وبين أن الضرب ليس هو الحل الأول والوحيد، بل أمر بالمعاملة الحسنة وبالمثل والتوجيه والنصح والإرشاد وكذلك التوبيخ واللوم والضرب الخفيف الذي لا يؤدي للضرر والأذى النفسي والبدني. ولأن الإسلام ينبذ العنف والأذى بكل أشكاله وصوره فهو بذلك يحفظ ويصون الطفل وبرعاه وقد اشتهر العديد من المربين المسلمين في هذا الميدان وأصبحوا مرجعيات عند الآخرين ونذكر من بينهم: أبا حامد الغزالي صاحب المؤلف "أبها الولد"، وكذلك ابن الجوزي صاحب "الهوامل والشوامل"، وابن سحنون والقابسي وغيرهم من كبار المربين، الذين نادوا بمراعاة حقوق الطفل واحترامه كشخص.

4- واقع الطفولة في المجتمعات المعاصرة:

ويظهر أن الطفولة في عالم اليوم تعد شريحة هامة في المجتمعات حيث أن آثارها تتعكس على مستقبل هذه المجتمعات، وذلك أن أطفال اليوم هم رجال الغد وشبابه، ولذلك كانت العناية بالأطفال والاهتمام بهم وبتربيتهم ورعايتهم من أنجح استثمارات المجتمعات اليوم. وبالمقابل فإن سوء معاملتهم وإهمالهم وإيذائهم ينعكس بشكل سلبي على مستقبل هذه المجتمعات. وتشمل ظاهرة سوء معاملة الأطفال في العديد من المجتمعات خاصة المتخلفة منها الأمية و بروز ظاهرة أطفال الشوارع وتشغيل وعمالة الأطفال واستغلالهم غير المشروع في الجرائم والمخدرات والسطو والجنس والتسول وغيره. في عالم اليوم تشمل ظاهرة سوء معاملة الأطفال أو أدائهم وإهمالهم عدة جوانب أهمها الصحية والاجتماعية والنفسية والقانونية.

لقد سنت التشريعات مجموعة من الحقوق التي تضمن الحياة الكريمة للأطفال وبصفة عامة وجود قوانين خاصة لحماية الطفولة في العالم من أي أذى، وفي هذه القوانين تزايد الاهتمام بأهمية

⁽¹⁾ سورة البقرة، الآية 233.

الأسرة ودورها في رعاية الطفولة وتوفير الجو الملائم للتربية والنمو وقد تباينت قوانين الاهتمام بهذه الشريحة من مجتمع لآخر، إلا أن هناك اتفاق في مجموع القوانين التي تكفل لهم الحياة الملائمة والكرامة أو ما يصطلح عليه بحقوق الإنسان التي تشترك كل المجتمعات في هذه العملية. ورغم ذلك فإن هناك صعوبة في تطبيق القوانين الخاصة برعاية الطفولة حتى في الدول المتقدمة، فما بالك بالدول المتخلفة، إن "منظمة الأمم المتحدة -اليونيسيف- ترى أنه مازال هناك شوط طويل أمام كثر من البلدان الصناعية يجب أن تقطعه من أجل إنجاز بعض الأهداف المقترحة من قبل اليونيسيف للبلدان النامية في مجالات متعددة كمعدلات محو الأمية، والأطفال ناقصي الوزن عند الولادة، وانتشار الرضاعة الطبيعية، والرعاية قبل الولادة وتنمية الطفولة المبكرة، وكذلك منع إيذاء الأطفال والإساءة إليهم..."⁽¹⁾

5- الطفولة في الوطن العربي:

الطفل الصغيرة في المجتمع العربي يروض منذ الصغر على تقبل سلطة والديه وبصفة خاصة سلطة الأب، ويطلب منه أن لا يثور عليهما أو يعارضهما، لذا فإن الطفل يجد نفسه مضطرا -ما دام لا يستطيع مواجهة هذه السلطة- أن يكتب عداة لها ويبيدي "حبه" وإعجابه بها.⁽²⁾ الإعجاب التلقائي والشديد بالسلطة يصبح فيما بعد إحدى الصفات التي تتميز بها شخصية الإنسان العربي، فأينما اتجهت فإنك تجد من ينكل بإعجاب وبمبالغة لا عقلية عن أستاذه أو مديره أو رئيسه أو زعيم حزبه... أو أي شخص يمارس عليه سلطة ظاهرة أو خفية، مباشرة أو غير مباشرة، وليس من باب الصدفة أن يكون المدح والهجاء من أبرز أعراض الشعر العربي، ولكي تحافظ الشخصية على حد التوازن فإن الشخص الذي يعاني من هذا الازدواج يشعر بأن إعجابه بالسلطة هو إعجاب صادق وبريء وله ما يبرره من الناحية المنطقية، وبهذه الطريقة يجد تبريرا مقنعا لقبوله بوضعية الإذلال التي يعيشها، وذلك أن السلطة التي تقمعه لن تعود موضوع "كره" وإنما موضوع "حب" وإعجاب، وبذلك يقنع نفسه بأنه يقبل بهذه السلطة لا لشيء إلا أنه يحبها.⁽³⁾

وتظهر هذه الازدواجية في شخصية الفرد العربي عامة والطفل خاصة الذي هو موضوع بحثنا، كونه قد عاش في أسرة أبوية تسلطية، أسرة تعمل على زرع ثقافة الخضوع والتبعية، أسرة تحارب

(1) اليونيسيف: الإستراتيجيات المتعلقة بالطفل في التسعينات، نيويورك، منظمة الأمم المتحدة للطفولة، 1989، ص31.

(2) حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، بيروت، معهد الإتماء العربي، 1980، ص ص 132-136.

(3) زيعور علي، قطاع البطولة النرجسية في الذات العربية، بيروت، 1982، ص ص 215-216.

النفاش ولا تعترف إلا بالقوة والهيمنة، فتنشئ في الطفل شخصية مزبوجة صادية مازوخية في آن واحد، شخصية تتلذذ عندما تكون موضوعاً للألم وتجد سعادتها عندما تمارس العنف والإكراه اتجاه الآخرين.

إن المجتمع الأبوي السلطوي يفسد العلاقات بين البشر ويجعل منها علاقات يتحكم فيها الأعلى بالأدنى، ويتحكم الأدنى بالأدنى منه، والمجتمع العربي لكونه مجتمعاً أبوياً سلطوياً فإنه يفرغ العلاقات الاجتماعية من محتواها الإنساني ويجعل منها علاقات بين أقوياء وضعفاء، وحتى الضعفاء يتحولون إلى أقوياء بالنسبة لمن هم أضعف منهم،⁽¹⁾

حيث نجد الكبار يهيمنون على الصغار، والنكور على الإناث والأخ على الأخت حتى ولو كان سنه يصغرها بكثير، ويمكن أن نضرب العديد من الأمثلة الخاصة بالسلط داخل المجتمع العربي.

وبذلك يكون الجميع ضحية الأقوياء والضعفاء لأنهم فقدوا قدرة التعامل الأفقي أو الإنساني التي تقوم على الاعتراف بالآخر على أساس الحرية والمساواة.⁽²⁾

تبدأ ممارسة الأسرة تحول المعاملة الاستبدادية دون تحقيق الطفل لاستقلاله الذاتي وينتج عن ذلك شخصية قلقة تعاني من عدم الثقة بالنفس وضعف الشعور بالمسؤولية ومن الجبن والانتكالية.⁽³⁾ كل هذا يساهم في تشويه صورة الطفل العربي عن نفسه ويجعله يساهم به بدوره في خضوعه، بل يصبح يؤمن بأن ما يتعرض له من استبداد وإساءة طبيعي وحتمي وجزء لا يتجزأ من العملية التربوية.

كما أن هذا الموقف لا يتوقف على مستوى علاقته بأفراد أسرته بل يتعداه ليصل إلى باقي المؤسسات الأخرى وهذا كما يبينه د. هشام شرابي ليشمل باقي المؤسسات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي يدخل الطفل مستقبلاً في علاقات معها.

وعليه يمكن القول بأن صورة الطفل العربي عن نفسه رهينة بمواقف الآخرين منها، وهذا يزيد في غربة الطفل العربي والتشويش على مواقفه. وعلى الرغم من ذلك يطلب من الأبناء في المجتمع العربي أن يلجئوا دائماً بالاعتراف بالجميل إزاء آباءهم الذين كانوا السبب في مجيئهم إلى هذا العالم

(1) محمد عباس نور الدين، التمويه في المجتمع العربي السلطوي: قراءة نفسية اجتماعية للعلاقة بالذات

والآخر، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2000، ص 09.

(2) نفس المرجع، ص 09.

(3) د. هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، بيروت، دار الطليعة، 1991، ص 46.

وبذلوا كل ما يستطيعون في سبيل عنايتهم وتنشئتهم.⁽⁴⁾

وهذا المن والغلو في المطالبة بالاعتراف بالجميل والفضل من طرف الآباء يعمل على غرس ثقافة الخضوع والإيمان القطعي بالفضل السحري للآباء على الأبناء، ويعطي نوعا من الشرعية للآباء على الإقبال على أنواع العنف والإساءة والقهر اتجاه الأبناء. وينسى الآباء كما يقول "ألفريد سوفي" A.Sauvy: "إن عليهم أن يعترفوا هم أيضا بالجميل إزاء أبنائهم الذين يطيلون حياتهم نحو المستقبل، لكي لا يتحولوا إلى ثمار جافة"⁽⁵⁾ فعلا كيف تكون حياة هؤلاء الآباء بدون الأبناء؟ فكم من بيت تحولت إلى مجرد جدران باردة مرعبة نتيجة غياب الأبناء وضحكاتهم ومرحهم.

ولهذا يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾.⁽¹⁾

ونفس الصورة تتكرر على مستوى علاقة الفرد بالدولة، إذ يتطلب من الفرد أن ينتهز كل فرصة ممكنة ليكيل النشاء والمديح للدولة التي منّت عليه بكل ما يتمتع به، لا باعتبار ذلك حقا من حقوقه وإما باعتباره هبة من السلطة، وما على المواطن إلا أن يخضع خضوعا تاما للسلطة رغم أن ولاء لها يظل دائما مشكوكا فيه.⁽²⁾

إن ما يمكن قوله هنا هو أن عملية التنشئة داخل البيئات العربية تعمل على غرس ثقافة النفاق والتمويه والرضا المشكوك لدى الأفراد، وهذا ما يظهر في علاقاتهم ببعضهم البعض.

6- دور الأسرة والتقاليد في إرساء ثقافة القهر والإساءة:

إن الأسرة في المجتمع العربي تلعب دورا رئيسيا في تكوين الشخصية الاستبدادية للإنسان العربي لكي ينشأ الطفل نشأة قابلا للتكيف بسرعة مع المجتمع الأبوي السلطوي. وغالبا ما تبدو العلاقات بين أفراد الأسرة في المجتمع العربي وكأنها قائمة على أساس الاحترام والحب والتعاون... إلا أن العلاقات تقوم في الواقع على أساس عدواني يتجلى في مواقف الغيرة والحسد والخلاف، ورغم طابع الوئام الذي قد يسود بين أفراد الأسرة العربية إلا أن هذا الوئام سرعان ما يزول، ولأسباب بسيطة وتافهة، ليظهر الميل العدواني واضحا وجليا، والخلاقات التي قد تقع بين الإخوة والأقارب أصدق مثال على ذلك.⁽³⁾

⁽⁴⁾ محمد عباس نور الدين، مرجع سابق، ص13.

⁽⁵⁾ Sauvy (Alfred), La révolte des jeunes, éditions Calman Lévy, France, p81.

⁽¹⁾ سورة الكهف، الآية 46.

⁽²⁾ محمد عباس نور الدين، مرجع سابق، ص13.

⁽³⁾ نفس المرجع، ص15.

ومنه نقول بأن الروابط الاجتماعية داخل المجتمعات العربية روابط هشة وسطحية، وهذه الروابط تتفكك بمجرد اندلاع أي صراع أو توتر، فالإخوة والولاء يتحولان إلى عداوة وبغضاء بمجرد نشوب النزاع.

إن الطفل في مجتمعنا العربي يعيش واقعا حاصره ويتعامل معه من خلال مفاهيم جاهزة لا تعبر أي اهتمام لرغباته الحقيقية، وتتميز هذه المعاملة بالقسوة واللامعقولة، ففي الوقت الذي يعامل فيه الطفل بقسوة وتقمع رغباته وحاجياته الأولية يعطى صورة مشوهة ولا معقولة عن الطبيعة المحيطة به، وذلك كاستمرار للموقف الاستبدادي الذي يتخذ من الطفل، لذا فإن أطفالنا قلما يعرفون الفرح، ويبدون أحيانا شعورا غريبا بالقلق والهم، ويتخذون من الآخرين ومن الطبيعة المادية موقفا معقولا يقوم على الحذر والشك.⁽⁴⁾

إن مثل هذا الموقف من الطفل لا يجب أن يطرح من خلال نظرة جزئية منفصلة عن إيديولوجية الاستبداد التي تسود المجتمع بصفة عامة، فإذا وضعنا الموقف من الطفل في مجتمعنا العربي في هذا الإطار الكلي أدركنا المأساة الحقيقية التي يعيشها أطفالنا، وتكمن هذه المأساة بأن على أطفالنا أن يتحملوا قمعاً يسقطه المجتمع العام على الأسرة التي تقوم هي بدورها بإسقاطه عليه، وذلك قصد تدجينهم وترويضهم منذ الصغر على إيديولوجية الاستبداد، لكي ينشئوا وهم على استعداد لأن ينكثفوا معا بممارستها أو الخضوع لها.⁽¹⁾

فالأسرة العربية تنتقم من وضعها المنحط والمأساوي بإسقاط أشد صور الإساءة والقهر ضد أبنائها، أو ما نسميه بالطرف الضعيف.

7- الثقافة العربية وقهر الطفولة:

وتبين صورة الأمثال الشعبية العربية أن التربية العربية تتمحور حول القيم التقليدية، ولاسيما العنف والضرب والترويض، ويمكن أن نذكر منها على سبيل المثال: "العلم في الصغر كالنقش على الحجر"؛ "ما بيربي ولد ليقنى جسد"؛ "اضرب ابنك وأحسن تأديبه"؛ "أكسر للعيل ضلع بيطلعو اثنين"؛ "يلي ما يقسى قلبه ما بيربي ولدو".⁽²⁾

هذه بعض الأمثال الشعبية التي تبين بوضوح مدى الإساءة للطفل والطفولة والنظرة الدونية

⁽⁴⁾ نفس المرجع، ص 21.

⁽¹⁾ محمد عباس نور الدين، مرجع سابق، ص 21.

⁽²⁾ وحيدة العظمة، أمثال شعبية في صحة الأسرة والتربية السكانية وسلامة البيئة، دمشق، وزارة الثقافة، مديرية محو الأمية، 1995، ص ص 137-146.

لهما، فهناك العديد من الأمثال الشعبية المنتشرة في الثقافة الشعبية العربية والتي تعمل على إعطاء صورة مشوهة للطفل والحط من شأنه، فالطفل في هذه الأمثال يقدم على أنه مخلوق شرير بطبعه صغير لا يعرف ما يفيد وهو في حاجة للترويض وعيل لا يستحق كل الثقة، بل يجب دوما الوقوف عند رأسه والأخذ بيده.

8- المبادئ التربوية (في إطار المدرسة):

ومن المبادئ التربوية التقليدية التي تستند إليها الثقافة العربية أن الطفل ينطوي على نزعة شريرة منغرسه في فطرته، وأنه يجب على التربية العمل على استئصال النزعة الشريرة في الأطفال، أي التأثير في غرائزهم وميولهم الطبيعية من أجل تكريس وتعزيز الجانب الأخلاقي في تربيتهم، وهذا بدوره يستوجب القيام بسلسلة من عمليات الإكراه والقسر والتسلط والضرب حين يخالف الطفل التعليمات الأخلاقية التي تتصل بإشباع بعض حاجاته الطبيعية.⁽³⁾

وفي نسق المبادئ التربوية التي تنطلق منها التربية العربية يمكن الإشارة إلى المبادئ التقليدية:

- الطفل شرير بطبعه.
 - تقديم التعليم على التربية.
 - الطفل راشد صغير.
 - التربية إعداد للحياة وليست هي الحياة.
 - التربية ترويض وليست تحريراً.⁽¹⁾
- فهذا النوع من التربية لا يمكن الانتظار منه إلا أن ينتج ويكرس:
- الاتكالية.
 - الشك في الذات والقدرات.
 - العقد والنقائص.
 - الضعف والخجل الزائد.
 - الدونية.
 - الإحساس بالذنب.
 - الخضوع للآخر.

⁽³⁾ علي أسعد وطفة، بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة

العربية، 1999، ص22.

⁽¹⁾ نفس المرجع، ص22.

تبقى ثقافة المجتمع التسلطية والاعتراضية هي البعد الحقيقي لكل ممارسة تربوية تسلطية في إطار المدرسة، ولكن إذا كانت لدينا قناعة علمية بأهمية التطور وأهمية تجاوز البنى التسلطية للمجتمع يمكن لنا أن نبحث عن أسباب مهما قيل عنها فهي ثانوية قياسا لما يعتمل في الحياة الثقافية العربية من دوامات العنف، ونحن ندرك بأن مرهانات تجاوز هذه الوضعية، هي مرهانات يجب أن تتطرق من هامش الحرية الذي تتطوي عليه ثقافة المجتمع بالدرجة الأولى.⁽²⁾

وفي هذا الصدد يقول خلدون النقيب واصفا العنف والتسلط: "تضطهدنا الدولة، ويقهرنا الإرهاب فنضطهد أبنائنا ونرهبهم، حتى يلتزموا بقيم وأنماط سلوكية، لا تتبع من واقعهم الجديد، وإنما تنقل لهم من مجتمع قديم، وقد كفت هي أن تكون مفيدة وإيجابية."⁽³⁾

ولقد بينت الأبحاث العربية الجارية حول بنية المجتمع العربي، أن النسق الأبوي البطريكي يشكل منطق الوجود الاجتماعي العربي ونسجه، وذلك بما تتطوي عليه هذه البطريكية من تسلط العقل الواحد والرأي الواحد في إطار المجتمع والدولة والأسرة.⁽⁴⁾

وفي مقالة له حول القهر وصناعته في الوطن العربي يرى مصطفى صفوان أن الثقافة العربية مشبعة بروح العنف وغنية بمظاهره، وأن العنف يدخل في نسيج العملية التربوية، وبالتالي فإن السمة التسلطية تعود إلى الطبيعة الأبوية للمجتمع العربي، حيث نجد سيطرة الأب في العائلة شأنه في المجتمع، فالأب هو المحور الذي تنتظم حوله العائلة بشكلها الطبيعي والوطني، وإرادة الأب هي الغالبة ويتم التعبير عنها في العائلة والمجتمع بنوع من الإجماع القسري الصامت المبني على الطاعة والقمع.⁽¹⁾

وعليه يظهر جليا بأن مظاهر العنف التي نعيشها أو التي نتعرض لها في حياتنا اليومية ما هي إلا انعكاس للتسلط الأبوي، وذلك التسلط الذي يعرف طريقه انطلاقا من الأسرة حيث يتقمص الأب دور المتسلط، ثم ينتقل إلى المسجد حيث نجد من جديد الإمام كمتقمص لدور المتسلط، ثم ينتقل إلى

(2) نفس المرجع، ص 23.

(3) خلدون حسن النقيب، التنشئة الاجتماعية في عصر مضطرب، في الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الطفل والمجتمع: دراسات في التنشئة الاجتماعية للأطفال، تحرير محمد جواد رضا، الكويت، الجمعية، 1993، ص 146.

(4) عبد القادر عرابي، أزمة المثقف العربي: المحنة الدائمة: دراسة في نشأة المثقف العربي وسوسولوجيته،

المستقبل العربي، السنة 18، العدد 196، 1995، ص 42.

(1) مصطفى صفوان: "صناعة القهر: علاقة التعليم بالإبداع في المجتمع العربي"، الناقد، العدد 71، ماي 1994،

ص 43.

المدرسة فنجد المعلم أصبح متسلطا، وكذلك داخل المؤسسة أو الإدارة يتحول المسئول إلى متسلط... إن حلقات التسلط داخل المجتمع العربي حلقات لا متناهية، فكلما ازداد الفرد قوة ورفعة في المنصب كلما ازداد تسلطه وعنفه تجاه الخاضعين له. ومن النتائج المتوقعة لهذا التسلط نجد:

أن التربية العربية بأنظمتها القمعية تمنع العقل أن يكون مبدعا، والفكر من أن يكون ناقدا، فالطاعة في المجتمع العربي، وفي أنظمتها التربوية هي القيمة العليا، التي تأخذ طابعا قديسا لا يقبل الجدل ولا يسمح بالاختلاف.⁽²⁾

كما نجد أن الباحث محمود قمبر يذهب إلى أبعد من هذا فيما يخص مسؤولية الثقافة العربية في قمع الطفولة والأطفال، حيث يقول: "الصفع والضرب أسلوب اجتماعي شائع ومألوف في حياتنا، ونستخدمه كل يوم في صبحه ومساءته: الحاكم يضرب المحكوم، والغني يضرب الفقير، والقوي يضرب الضعيف، والكبير يضرب الصغير، والرجل يضرب المرأة، والمعلم يضرب التلميذ، وهكذا نضرب أنفسنا بأنفسنا، ونستمر في الضرب، نترى به فلا عجب أن نقبلنا الضرب بيد غيرنا، تنزل الصفعات على وجوهنا وكرامتنا"⁽³⁾ وقد يحتج الآباء في مجتمعنا بأنهم حريصين على مصلحة أطفالهم ومستقبلهم الشيء الذي يبرر اللجوء إلى العنف والقسوة في معاملتهم، إلا أن مثل هذه الحجة لا يقصد منها إلا أن تظلم العنف وتبرره بأن تعطيه طابعا تربويا وتوجيهيا، ومثل هذا التبرير لا يغير من واقع العنف شيئا خاصة عندما يتعلق الأمر بالعنف الذي نمارسه على أطفالنا بينما نقدر نحن على ممارسته.⁽¹⁾

فلغة العنف والتأنيب والعقاب هي اللغة الأكثر تداولاً في بيئاتنا العربية، منها الأسرة، المدرسة، المسجد وغيرها من البيئات الأخرى، فالزوج يضرب الزوجة مبررا هذا بأنها لا تعرف مصالحها وعليه أن يضربها خدمة لها، والأب يسلك نفس السلوك مع الأبناء كونهم قاصرين يجب اللجوء إلى العنف خدمة لمستقبلهم ومصالحهم، ونفس الشيء عند المسئول في المصنع والمعلم في المدرسة... الخ، فالعنف والتسلط هما لغة وأداة العمل التربوي التشبيهي.

إن الشخصية السلطوية التي ينتجها المجتمع الاستبدادي شخصية قلقة تعاني من القمع الذي تحاول إسقاطه إما على الذات أو على الآخرين، وارتداد القمع إلى الذات يتجلى بالخصوص على شكل شعور بالذنب أو تبخيس للذات وتحقيرها، وقد يصل إلى درجة تمير الذات (الانتحار)، أما إسقاط القمع على الآخرين وهو الأكثر شيوعا، فإنه يتجلى على شكل سوء الظن بالآخرين واعتبارهم مصدر الشر الذي يترصد الفرد،

(2) نفس المرجع، ص 44.

(3) محمود قمبر، التربية وترقية المجتمع، الكويت، دار سعاد الصباح، مركز خلدون للدراسات الإنمائية،

1992، ص 131.

(1) محمد عباس نور الدين، مرجع سابق، ص 22.

وقد يصل الأمر إلى درجة اعتبار الآخر مصدرا للتهديد يجب إزاحته من الوجود، لذا تجد الشخصية السلطوية في اتهام الآخرين راحة مزدوجة: تصريف العدوان بصبه عليهم (الانتقاد) وإثبات البراءة الذاتية (نفي العدوان عن الذات).⁽²⁾

وكنتيجة لنمط التنشئة السائدة في المجتمع العربي الأبوي السلطوي يتعود الطفل أن يسقط على الآخرين مسؤولية ما يرتكبه من الأخطاء، إذ فشل في المدرسة فالمعلم هو المسئول، وإذا لم يأت في الموعد فالحافلة هي التي تأخرت... الخ، وينعكس ذلك على العبارات التي نستعملها كي نتخلى عن المسؤولية ونتخلص من الشعور بالذنب، فنقول مثلا: لقد فاتني القطار، في حين يقول الفرنسي: لقد تخلفت عن القطار، j'ai raté le train، وتغرس الأم هذا الموقف المتخاذل في شخصية الطفل عندما تدافع عنه أمام والده أو معلمه أو أمام الجيران بقولها "الحق مش عليه" أي أن المسؤولية لا تقع عليه وإنما على الآخرين، كذلك الشأن في المتهم الذي يعتبر نفسه بريئا فيقول أمام المحكمة إنه "مظلوم" أي أنه لا يتحمل مسؤولية ما نسب إليه وأن الآخرين هم المسئولون.⁽³⁾

خاتمة:

وختاما لهذا نقول بأن الطفل داخل المجتمعات العربية يعاني من الأمرين، فهو يحيا حياة كلها كبت ومعاناة، كما أن الإساءة للطفولة تعد عنوانا ومرجعية للتنشئة الاجتماعية داخل هذه المجتمعات. وعليه فالمطلوب إعادة النظر في مكانة ووضع الطفولة داخل هذه المجتمعات حتى يتسنى لها العيش حياة كريمة بعيدة عن كل شكل من أشكال الاحتقار والتقزيم والنظرة الدونية. كما أن هذا لن يتأتى إلا من خلال ثورة عارمة على العديد من العادات والقيم الرجعية المكبلة للحريات والطامسة للحقوق والحاجات لهذه الشريحة الاجتماعية، ونشير في الأخير إلى أن العملية ليست بالسهلة، بل تتطلب الكثير من الجهد والصبر والشجاعة، وهذا إذا أردنا فعلا أن نجعل من الطفولة عندنا محطة للنجاحات وحلقة هامة وفعالة في بناء الفرد الاجتماعي الإيجابي والفعال.

المراجع:

1. منيرة بن عبد الرحمن آل سعود، إيذاء الأطفال: أنواعه وأسبابه وخصائص المتعرضين له، الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ط1، 2005.
2. الزهراوي ع. الهادي، ثقافة الأطفال بالمغرب، المغرب، M.B.H. 1999.
3. عفيفي عبد الخالق محمد، الأسرة والطفولة، القاهرة، مكتبة عين شمس، 1993.

⁽²⁾ Klein (Mélanie), Notes sur quelques mécanismes schizoïdes in développement de la psychanalyse, Paris, P.U.F, 1972, p575.

⁽³⁾ هشام شرابي، مرجع سابق، ص46.

- انظر أعمال كل من العالم "تارد" G. Tarde حول التقليد والمحاكاة وكذلك أعمال Albert Bandura صاحب نظرية التعلم، والعالم "جون دولارد" John Dollard صاحب نظرية الإحباط، وغيرهم من العلماء الآخرين.
- انظر منيرة بنت عبد الرحمان آل سعود، نفس المرجع.
4. حامد عبد السلام زهران، علم النفس النمو: الطفولة والمراهقة، ط1، القاهرة، عالم الكتب، 1982.
- للمزيد ارجع إلى: إيدجار فور، تعلم لتكون، ترجمة: حنفي بن عيسى، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.
- انظر: صحيح مسلم، البخاري، الترمذي...
5. سورة البقرة، الآية 233.
6. اليونيسيف: الاستراتيجيات المتعلقة بالطفل في التسعينات، نيويورك، منظمة الأمم المتحدة للطفولة، 1989.
7. حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1980.
8. زيعور علي، قطاع البطولة النرجسية في الذات العربية، بيروت، 1982.
9. محمد عباس نور الدين، التمويه في المجتمع العربي السلطوي: قراءة نفسية اجتماعية للعلاقة بالذات والآخر، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2000.
10. د. هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، بيروت، دار الطليعة، 1991.
11. Sauvy (Alfred), La révolte des jeunes, éditions Calman Lévy, France, p81.
12. سورة الكهف، الآية 46.
13. وحيدة العظمة، أمثال شعبية في صحة الأسرة والتربية السكانية وسلامة البيئة، دمشق، وزارة الثقافة، مديرية محو الأمية، 1995.
14. علي أسعد وطفة، بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999.
15. خلدون حسن النقيب، التنشئة الاجتماعية في عصر مضطرب، في الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الطفل والمجتمع: دراسات في التنشئة الاجتماعية للأطفال، تحرير محمد جواد رضا، الكويت، الجمعية، 1993.
16. عبد القادر عرابي، أزمة المثقف العربي: المحنة الدائمة: دراسة في نشأة المثقف العربي وسوسيولوجيته، المستقبل العربي، السنة 18، العدد 196، 1995.
17. مصطفى صفوان: "صناعة القهر: علاقة التعليم بالإبداع في المجتمع العربي"، الناقد، العدد 71، ماي 1994.
18. محمود قمبر، التربية وترقية المجتمع، الكويت، دار سعاد الصباح، مركز خلدون للدراسات الإنمائية، 1992.
19. Klein (Mélanie), Notes sur quelques mécanismes schizoïdes in développement de la psychanalyse, Paris, P.U.F, 1972, p575.